

التمثيلات البصرية للهوية الوطنية في الكتاب المدرسي الجزائري "سنة رابعة ابتدائي أنموذجا" -دراسة
سيمولوجية-

**Visual Representations of National Identity in Algerian Textbooks: A Semiologic
Study of the Fourth-Grade Primary School Textbook**

مسكين دليلة¹

جامعة مصطفى اسطمبولي (معسكر / الجزائر) - d.meskine@univ-mascara.dz

تاريخ الاستلام: 2026/05/22 تاريخ القبول: 2026/09/02 تاريخ النشر: 2026/10/01

ملخص:

يُبرز هذا البحث الأهمية الاستراتيجية للكتاب المدرسي الجزائري كوسيط بيداغوجي وثقافي موكل إليه هندسة وعي الناشئة وتشكيل معالم شخصيتهم الحضارية، ومع التحول المعاصر نحو "الهيمنة الأيقونية"، لم تعد الصورة مجرد أداة تزيينية، بل غدت مركباً بنيوياً يحمل خطابات أيديولوجية خفية تخاطب لاوعي الطفل مباشرة وفق أطروحات "رولان بارت"، وفي هذا الإطار، تكتسي مسألة الهوية الوطنية في الجزائر حساسية بالغة ناتجة عن إرثها النضالي ضد محاولات الطمس الاستعماري، ويأتي كتاب التاريخ والتربية المدنية للسنة الرابعة ابتدائي كأحد أهم المحامل لتلقين قيم المواطنة والانتماء في مرحلة عمرية حرجة. وتتأسس هذه الدراسة السيمولوجية لتفكيك الشفرات والتمثيلات البصرية الكامنة خلف رسوم وخرائط هذا الكتاب، بهدف استكشاف الاستراتيجية الدلالية المتبعة لبناء صورة الوطن في مخيلة المتعلم وتجذير أصيل ثوابته.

الكلمات المفتاحية: التمثيلات البصرية، الهوية الوطنية، الكتاب المدرسي، السيمولوجيا، مرحلة التعليم الابتدائي، الصورة التعليمية.

Abstract:

This study highlights the strategic importance of the Algerian textbook as a pedagogical and cultural medium entrusted with engineering the consciousness of young generations and shaping their civilized identity. With the contemporary shift toward "iconic hegemony," images are no longer mere decorative tools; rather, they have become a structural composite carrying hidden ideological discourses that directly address the child's subconscious, in line with Roland Barthes' theories. Within this framework, the question of national identity in Algeria carries immense sensitivity resulting from its revolutionary legacy against colonial attempts of cultural erasure. Accordingly, the History and

Civic Education textbook for the fourth year of primary school serves as one of the most critical platforms for instilling values of citizenship and belonging during a critical developmental age. Thus, this semiological study is established to deconstruct the visual

¹ د.مسكين دليلة.

codes and representations embedded within the illustrations and maps of this textbook, aiming to explore the semantic strategy employed to construct the image of the homeland in the learner's imagination and root their authentic principles.

Keywords: Visual representations, National identity, Textbook, Semiotics, Primary education, Educational image.

مقدمة:

تحظى المنظومة التربوية والتعليمية بمكانة استراتيجية في أي مجتمع يسعى إلى بناء استقراره السوسيو ثقافي وضمان استمراريته الحضارية؛ وفي قلب هذه المنظومة يبرز الكتاب المدرسي بوصفه الأداة البيداغوجية الأكثر حضوراً وتأثيراً، فهو ليس مجرد وعاء لتجميع المعارف ونقل العلوم الجافة، بل هو وسيط ثقافي وسياسي بامتياز، موكل إليه هندسة وعي الناشئة وتشكيل ملامح هويتهم الفردية والجمعية.

وتاريخياً، ظلّ الخطاب التربوي يعتمد بشكل أساسي على "الكلمة المكتوبة" والتحميل اللغوي، غير أن الطفرة الاتصالية المعاصرة أزاحت اللفظ من صدارته المطلقة لتفسح المجال أمام ما يُعرف بـ "الهيمنة الأيقونية" أو البصرية، بناءً على ذلك، لم تعد الصورة والرسوم التوضيحية داخل المقررات الدراسية مجرد عناصر ترفهية أو أدوات ثانوية لشغل الفراغات وتزيين الصفحات، بل تحولت إلى مركّب بنيوي جوهري في صياغة الخطاب التربوي الحديث؛ وذلك بالنظر إلى خصائصها السيكلوجية والذهنية الفريدة، وقدرتها الفائقة على الاختزال، الجذب، والتأثير العاطفي والوجداني السريع في نفسية الطفل الذي لم تكتمل لديه بعد آليات التجريد اللغوي، مما يجعل الصورة أقصر الطرق لنحت المفاهيم في ذهنه.

وفي هذا الصدد، يتجاوز التحليل السيميائي المعاصر النظرة السطحية للصورة التي تراها مجرد انعكاس للمظهر الخارجي للواقع، لينظر إليها كبنية "مفخّخة" بالدلالات والرموز الموجهة بعناية، ويؤكّد رائد السيميولوجيا وعالم اللسانيات الفرنسي رولان بارت (Roland Barthes) على هذه الخطورة البنيوية الكامنة في النظم الأيقونية ومدى تغلغلها الدلالي بقوله: "إن الصورة سند دلالي غني جداً، وهي لا تكتفي بنقل المعلومة، بل تعيد إنتاج وعي أيديولوجي مُقنن يخاطب اللاوعي الجماعي مباشرة (بارث، 2005، صفحة 45)

وعليه؛ فإن الصورة في فضاء التعليم تشتغل كخطاب موازٍ يمرر مواقف، وقيم، وتصورات مسبقة الصنع تشكل في مجموعها ما يسميه علماء التربية بـ "المنهج الخفي (Hidden Curriculum)" الذي يعيد إنتاج النموذج الثقافي والسياسي الذي ترتضيه الدولة.

وفي السياق الجزائري، تكتسي مسألة "الهوية الوطنية" أبعاداً بالغة الحساسية والأهمية؛ فهي لم تكن يوماً ترفاً فكرياً، بل هي نتاج صراع مرير خاضته الأمة ضد محاولات المسخ والفرنسة والإلحاق الثقافي طيلة الحقبة الاستعمارية، ومنذ الاستقلال، واجهت المدرسة الجزائرية تحدي إعادة بناء الشخصية الوطنية واسترجاع مقوماتها السيادية، وفي إطار مراجعات المناهج التعليمية المعاصرة (طبعة الجيل الثاني)، غدا كتاب التاريخ والتربية المدنية

التمثيلات البصرية للهوية الوطنية في الكتاب المدرسي الجزائري "سنة رابعة ابتدائي أنموذجاً" -دراسة سيميولوجية-

للسنة الرابعة من التعليم الابتدائي أحد المحامل الاستراتيجية والأجهزة الرمزية التي راهنت عليها وزارة التربية الوطنية لتلقين قيم المواطنة، وتجذير روح الانتماء لدى الناشئة.

إن اختيار طفل السنة الرابعة ابتدائي كمستهدف بهذا الخطاب يحمل دلالة نفسية بيداغوجية؛ فهذه المرحلة العمرية تمثل الطور الانتقالي الذي يبدأ فيه الطفل بالانفتاح على الفضاءات الجمعية الكبرى خارج نطاق الأسرة الضيق، وتتشكل لديه اللبانات الأولى لمفهوم "الدولة" و"الوطن".

من هذا المنطلق، تأتي هذه الدراسة السيميولوجية لتضع هذا الكتاب على مشرحة النقد والتحليل، متجاوزة القراءة اللفظية السطحية إلى تفكيك الشفرات البصرية العميقة والتمثيلات الأيقونية الكامنة خلف الرسوم، والصور، والخرائط، والألوان، وتسعى الدراسة أساساً إلى الإجابة عن سؤال مركزي: كيف تُهندس صورة الوطن في مخيلة المتعلم الصغير؟، وما هي السياسة البصرية المتبعة لصياغة أبعاده الهويةية وجعله متصالحاً مع أصالته وثوابته في عالم يموج بالتدفقات الرقمية العابرة للحدود؟

أولاً: المقاربة السيميولوجية للمنظور البصري في التربية.

تستند هذه الدراسة إلى المنهج السيميولوجي الذي يتعامل مع الصورة بوصفها "نظاماً دلاليّاً" (Semiotic System) يحمل مستويين من المعنى: المستوى التقريري المباشر (Denotation)، والمستوى الإيحائي العميق (Connotation)، إن الصورة في الكتاب المدرسي ليست مجرد أداة لتزيين الصفحة، بل هي "بنية بصرية مشحونة أيديولوجياً" (إيكو، 2007، صفحة 89).

وفي هذا السياق، يشير الباحث العربي فيصل الأحمر في دراساته السيميائية إلى أن: "العلامة البصرية في المناهج التربوية المغاربية تمثل سلطة صامتة؛ إنها تبرمج العين على رؤية جغرافية وتاريخ محددين، بحيث يصبح الرمز البصري مرادفاً للوجود القومي (فيصل، 2010، صفحة 112)".

من هنا، فإن تفكيك أيقونات كتاب السنة الرابعة ابتدائي يساعدنا على فهم "السياسة البصرية" التي تنتهجها وزارة التربية الوطنية الجزائرية لتنشئة طفل متمسك بأصالته.

لا يمكن فهم آليات اشتغال الكتاب المدرسي الحديث دون إدراك الثورة الإبستمولوجية التي أحدثتها السيميولوجيا (علم العلامات) في تعاملها مع الأيقونة البصرية، فمنذ أطروحات فرديناند دي سوسير وشارلز بيرس، وصولاً إلى رولان بارت، لم تعد الصورة مجرد إنعكاس سلبي للواقع، بل أصبحت تُعرف بوصفها "بنية دلالية مركبة" (Semiotic System) قائمة بذاتها، خاضعة لسنن وقوانين ثقافية واجتماعية مسبقة الصنع.

في الحقل التربوي، يكتسي هذا المنظور أبعاداً أكثر حساسية؛ فالتلميذ في مرحلة التعليم الابتدائي (السنة الرابعة أنموذجاً) يمر بمرحلة نمو معرفي يعتمد فيها بشكل أساسي على "الذكاء البصري" والتمثل الأيقوني لتجريد المفاهيم المركبة مثل الوطن، الهوية، والانتماء، بناءً على ذلك، يتم تفكيك هذا المنظور عبر المستويات التالية:

1. ثنائية التقرير (Denotation) والإيحاء (Connotation) في الفضاء التربوي

تشتغل الصورة في كتاب التربية المدنية والتاريخ وفق مستويين تشرحيين يكمل أحدهما الآخر:

المستوى التقريري المباشر (Denotation): ويمثل الطبقة السطحية والمحايدة للإدراك البصري (ما تصوره العين مجرداً)؛ في كتاب السنة الرابعة، يشمل هذا المستوى الألوان المحسوسة (أخضر، أحمر، أبيض)، أشكال الخرائط الجغرافية، الخطوط اليدوية، والملاحم الفيزيولوجية للشخصيات التاريخية، إنها المادة الخام للعلامة قبل إسقاط التأويل الثقافي عليها.

المستوى الإيحائي العميق (Connotation): وهو المدى الذي تراهن عليه المناهج التربوية، هنا تتحول الصورة من مجرد "أداة إيضاح" إلى "مؤسسة إنتاج إيديولوجي وثقافي"، فاللون الأخضر في العلم الوطني لا يعود مجرد تردد ضوئي، بل يغدو إيحاءً بالأرض، الخصوبة، والعمق الإسلامي؛ والملاحم الصارمة للمجاهد في الرسوم التوضيحية لا تعبر عن حالة نفسية عابرة، بل توحى بالأنفة، الصمود، والشرعية النضالية، يشتغل الإيحاء هنا كآلية لـ "أسطرة" الرموز الوطنية وتحويلها إلى قيم مطلقة في لاوعي الطفل.

2. الصورة كبنية بصرية مشحونة أيديولوجياً

إن نفي صفة "الحياد" عن الصورة داخل الكتاب المدرسي هو حجر الزاوية في التحليل السيميائي التربوي، الصورة لا تزين الصفحة بل "تهندس الوعي"؛ إن اختيار زاوية التقاط صورة لمعلم أثري جزائري (تيمقاد مثلاً)، أو طريقة توزيع الإضاءة، أو تقديم اللباس التقليدي في وضعية احتفالية، كلها عمليات "انتقاء أيديولوجي".

تُمرر المدرسة من خلال هذه البنى البصرية ما يسمى بـ "المناهج الخفية" (Hidden Curricula)؛ وهي القيم والتوجهات السياسية والثقافية التي لا تُصاغ في نصوص صريحة، بل تُحقن عبر الرموز الصامتة، فالطفل يتشرب منظومة القيم السيادية للدولة من خلال الرؤية البصرية المتكررة لرموز الدولة قبل أن يستوعبها قانونياً أو دستورياً.

3. تفكيك "السلطة الصامتة" والبرمجة البصرية في الفضاء المغاربي

عندما يصف الباحث العربي فيصل الأحمر العلامة البصرية في المناهج المغربية بأنها "سلطة صامتة تبرمج العين"، فإنه يحيلنا إلى مفهوم "الهيمنة الرمزية" عند عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو؛ إن المنظومة التربوية تمتلك الحق الحصري في تحديد "ما يجب أن يراه التلميذ" و"كيف يجب أن يراه".

هذه "البرمجة البصرية" تشتغل على محورين رئيسيين في كتاب السنة الرابعة ابتدائي:

أ. المحور الجغرافي: صياغة عين التلميذ على رؤية حدود جغرافية موحدة وممتدة (الجزائر بشساعتها وعمقها الصحراوي المتلاحم مع شمالها)، بحيث يتم تسييس الجغرافيا بصرياً لتصبح مرادفاً للوحدة الترابية غير القابلة للتجزئة.

ب. المحور التاريخي: حصر الذاكرة البصرية في محطات مفصلية تؤسس لشرعية الدولة الحديثة (المقاومات الشعبية والثورة التحريرية)، مما يجعل الرمز البصري الثوري مرادفاً للوجود القومي والهوية الذاتية.

4. استنتاج: تفكيك "السياسة البصرية" لوزارة التربية الوطنية

بناءً على ما تقدم، فإن تفكيك أيقونات كتاب السنة الرابعة ابتدائي يرفع الغطاء عما يمكن تسميته بـ "السياسة البصرية" (Visual Politics) للدولة الجزائرية؛ وهي سياسة واعية تهدف إلى مواجهة تحديات العولمة

التمثيلات البصرية للهوية الوطنية في الكتاب المدرسي الجزائري "سنة رابعة ابتدائي أنموذجاً" -دراسة سيميولوجية-
والتدفق البصري العابر للحدود (عبر الرسوم المتحركة والوسائط الرقمية الغربية) من خلال خلق "مصدات هوياتية
بصرية" داخل المنظومة التربوية.

إن الوزارة ومن خلال هذا الكتاب، تعيد إنتاج "الجزائري الأصيل" بصرياً؛ الطفل الذي يربط صورته الذهنية
عن ذاته بالعلم، والشهيد، والأرض، والعمارة الإسلامية والأمازيغية؛ إنها عملية صياغة للمواطنة تبدأ من العين
لتستقر في العقل والوجدان، مما يجعل من المقاربة السيميولوجية أداة كاشفة ليس فقط لجماليات الصور، بل لـ
"استراتيجيات البناء القومي" الكامنة خلفها.

ثانياً: أبعاد الهوية الوطنية ومظاهرها البصرية في الكتاب

إن عملية تشريح الأيقونات البصرية داخل كتاب التاريخ والتربية المدنية للسنة الرابعة من التعليم الابتدائي
(طبعة الجيل الثاني) تكشف عن هندسة دلالية منظمة وموجهة بعناية نحو صياغة الوعي الهوياتي للمتعلم،
فالصورة والرسوم لا تشغل داخل الفضاء التربوي كعناصر معزولة، بل تترابط ضمن بنية ثلاثية الأبعاد (جغرافية،
تاريخية، وثقافية) لتشكل في مجموعها ما يسميه السيميائيون "النسق الهوياتي الجامع".
من خلال هذا المنظور، يمكننا تفكيك المظاهر البصرية للأبعاد الثلاثة وتحليل شفراتها العميقة على النحو
الآتي:

1. البعد الجغرافي والبيئي (الأرض والحدود والسيادة)

لا يتم التعامل مع جغرافية الجزائر في المناهج الرسمية بوصفها حيزاً مكانياً فيزيائياً مجرداً، بل تُقدم أيقونياً كـ
"مقدس وطني" يرتبط بالسيادة والوجود، وتبرز التمثيلات البصرية لهذا البعد من خلال آليتين دلالتين:
الأيقونة الأولى: الخريطة الجيوسياسية المتكررة:

تتكرر خريطة الجزائر في الكتاب كخلفية أو كعنصر رئيسي في المحاور الأولى، سيميائياً، لا تظهر الخريطة
كخطوط حدودية جافة وصامتة، بل يُلجأ عمداً إلى تقنية "التباين اللوني التضاريسي"، يبرز الشريط الساحلي بلونه
الأزرق الداكن ليحيل على الانفتاح المتوسطي، تليه السهول والأطلس باللون الأخضر النضر كدلالة على العطاء
والنماء، وصولاً إلى الكتلة الكبرى وهي الصحراء الشاسعة الممتدة التي تُصبغ باللون الذهبي الدافئ.

الأيقونة الثانية: صور المعالم الطبيعية الشاهدة:

مثل الصور الفوتوغرافية لجبال جرجرة المكلفة بالثلوج، الواحات النخيلية في بسكرة، والمناظر الطبيعية
الفريدة لـ "الأسك" Frame في الهقار بالطاسيلي.
التحليل السيميولوجي لـ "البعد الجغرافي":

إن هذا التوزيع اللوني المدروس والامتداد الشاسع في الفضاء البصري يشغل على سيكولوجية الطفل ليرسخ
لديه إحساساً عظيماً بـ "الامتداد الجغرافي والأمن المجالي": فالخريطة هنا تتجاوز مستواها التقرييري لتصبح في
المستوى الإيحائي تعبيراً عن "الجسد الواحد غير القابل للتجزئة".

وفي هذا السياق، يتوسع الجغرافي والباحث الجزائري عز الدين بوكولة في تفكيك هذا الرابط البصري مؤكداً

أن:

"إن رسم خريطة الجزائر في مخيلة الطفل عبر ألوان طبيعية زاهية ومتكاملة يعزز لديه الرابطة الوجدانية بين الهوية والتراب، ويحول الحدود السياسية الوهمية إلى عقيدة جغرافية وطبيعية راسخة في عقله الباطن، بحيث يصبح الدفاع عن أي شبر من هذا الامتداد دفاعاً عن كينونته الشخصية" (عزالدين ، 2014 ، صفحة 76)

إن الرموز البصرية للطبيعة (القرية، الجبل، الصحراء) تشتغل كـ "شواهد أزلية" تؤكد للتلميذ أن الأرض سابقة في وجودها على الدولة، وأن الهوية متجذرة في هذا التراب وتستمد أصالتها من عراقه معالمه الطبيعية.

2. البعد التاريخي والنضالي (الذاكرة الوطنية وميثاق الشهادة)

يُمثل البعد النضالي الثوري العمود الفقري الذي تستند إليه الشرعية السياسية والثقافية للهوية الجزائرية المعاصرة، وتتكامل الأيقونات البصرية في كتاب التاريخ لتشكل "ملحمة مرئية" تخاطب وجدان الطفل عبر مستويين:

المستوى الأول: صور الرموز وقادة المقاومات الشعبية:

مثل الرسومات الزيتية للأمير عبد القادر بعباته البيضاء ونظراته الثاقبة، أو المقاومة لالة فاطمة نسومر، والشيخ الحداد.

المستوى الثاني: فوتوغرافية أبطال الثورة التحريرية (1 نوفمبر 1954):

مثل الصورة الشهيرة للشهيد العربي بن مهيدي وهو يبتسم مكبلاً بالأغلال، أو مصطفى بن بولعيد، وعميروش.

التحليل السيميولوجي لـ "البعد التاريخي":

تخضع هذه الصور والرسومات لـ "بروتوكول بصري صارم": فجميع الشخصيات التاريخية تُقدم بملامح حازمة، قوية، ونظرات شاحصة نحو الأعلى أو متجهة نحو الأفق البعيد؛ إن هذه "الوضعية الأيقونية البطلة" توجي بالأنفة، الشموخ، واليقين بالنصر، وتتعمد إخفاء ملامح الانكسار أو المعاناة الجسدية لتبث في نفس متعلم السنة الرابعة ابتدائي مشاعر الفخر والاقتداء لا الحزن والإنكسار، الحضور البصري هنا يحول التاريخ من مجرد سرد زمني جاف للوقائع والمعارك إلى "قدوة بصرية حية".

ويتوافق هذا التحليل مع الطرح السوسيولوجي لعالم الاجتماع الجزائري مصطفى حداد في دراسته لآليات التنشئة الاجتماعية حيث يرى أن:

"الذاكرة التاريخية الجزائرية في الكتب المدرسية تعتمد بشكل مطلق على ما يمكن تسميته بـ "الأيقونة الحماسية المشحونة": فالصورة هنا لا تُستدعى كشاهد تاريخي بارد، بل تُوظف لإعادة إنتاج قيم التضحية والمقاومة والشهادة في جيل لم يعيش الثورة، إنها تعمل كمصدات بصرية ودفاعية تحمي الوعي الجديد للجيل الناشئ من عوارض الاستلاب الثقافي والتغريب الذي تفرضه وسائط العولمة المعاصرة (مصطفى ، 2002 ، صفحة 143)"

3. البعد الثقافي والاجتماعي (الوحدة في ظل التنوع)

يرتبط هذا البعد بـ "الأنثروبولوجيا الثقافية" للمجتمع الجزائري، حيث يحاول الكتاب المدرسي الإجابة بصرياً عن سؤال: من نحن ثقافياً؟ وكيف نتعايش؟ وتتوزع الأيقونات هنا لتغطي الموروث المادي واللامادي للأمة:

التمثيلات البصرية للهوية الوطنية في الكتاب المدرسي الجزائري "سنة رابعة ابتدائي أنموذجاً" -دراسة سيميولوجية-

الأيقونة الثقافية المادية: العمارة والآثار التاريخية:

صور فوتوغرافية لجامع كتشاوة العتيق بمئذنتيه اللتين تجمعان العمارة العثمانية والإسلامية، والآثار

الرومانية في تيمقاد وجميلة، وقصور وادي ميزاب العريقة في غرداية.

الأيقونة الثقافية اللامادية: التنوع البشري والأزياء التقليدية:

رسومات توضيحية ملونة لأطفال وأفراد يرتدون أزياء جزائرية متنوعة في المناسبات الوطنية (البرنوس

الرجالي الأبيض، الحايك العاصمي، اللباس القبائلي المطرز، الملحفة الشاوية، واللثام والزي التارقي الصحراوي).

التحليل السيميولوجي لـ "البعد الثقافي":

تشتغل هذه اللوحة البصرية المتنوعة وفق استراتيجية دلالية تركز مبدأ "التعددية في إطار الوحدة":

فالكتاب يحرص على جمع هذه الرموز المتباينة مجانياً (جنباً إلى جنب) وفي صفحة واحدة أو فضاء بصري متصل،

هذا التجاوز المكاني بين الزي التارقي والزي الشاوي أو العاصمي، وبين الأثر الروماني والمعمار الإسلامي، يبعث برسالة

مضمرة إلى لاوعي الطفل مفادها أن كل هذه الروافد هي مكونات شرعية وأصيلة لنهر واحد اسمه الجزائر؛ إنها تلغي

أي نزعة تصادية أو إقصائية وتكرس مفهوم المواطنة المرنة المتصالحة مع أبعادها.

ويتماشى هذا التوليف البصري مع الأطروحة الفكرية العميقة للمفكر الجزائري الكبير مولود قاسم نايت

بلقاسم حول جوهر الشخصية الوطنية، إذ يقول:

"إن أصالة الشخصية الجزائرية وعظمتها التاريخية لا تكمن في انغلاقها، بل تكمن تحديداً في قدرتها

الاستثنائية العجيبة على صهر كل التنوع الثقافي والتعدد اللغوي والمحلي في بوتقة الوحدة الوطنية الشاملة

والملتحمة، بحيث يصبح هذا التنوع مصدر ثراء وقوة للدولة لا مبعث تفرقة أو شقاق" (مولود قاسم، 2007، صفحة

54)

ثالثاً: سيميولوجية الألوان والرموز السيادية (العلم الوطني):

لا يمكن لأي مقارنة سيميائية تروم تفكيك المنظور البصري في الكتاب المدرسي الجزائري (ولا سيما كتاب

التاريخ والتربية المدنية للسنة الرابعة من التعليم الابتدائي) أن تتخطى الحضور الطائفي والممنهج لـ "العلم الوطني"

برمزيت ألوانه وأشكاله، إن هذا الحضور لا يتحرك في فضاء الكتاب كعنصر تزييني عابر أو كفراغ بصري تكميلي، بل

يتشكل بوصفه "الدال السيادي الأكبر" الذي يهيمن على النسيج الأيقوني للواجهات، المفاصل، والأنشطة التربوية

برمتها.

من خلال المعاينة السيميائية لأشكال توظيف هذا الرمز السيادي، يمكننا رصد مستويين أساسيين لاشتغاله

الدلالي:

1. التشريح السيميائي للعلامة السيادية (الألوان والأشكال)

تتأسس بنية العلم الوطني جزائرياً على ترسانة من الرموز الهندسية واللونية التي تحمل إرثاً كودياً (Coded

Heritage) بالغ الكثافة في الوجدان الجمعي:

اللون الأخضر: في مستواه التقريري يشغل النصف الأيمن من المساحة البصرية للعلم، بينما في مستواه الإيحائي الثقافي والتربوي يتجاوز مجرد كونه لوناً للطبيعة والنماء ليحيل مباشرة على "العمق الإسلامي للأمة" و"الارتباط الأزلي بالأرض الفلاحية المعطاء" التي استرجعها الشعب الجزائري كرمز لسيادته بعد حقبة استعمارية طويلة قامت على سلب الأرض.

اللون الأبيض: يشغل النصف الأيسر مقدماً شفرة بصرية تحيل تقريرياً على النقاء والنصوع، وتتجاوز ذلك إيحائياً لتكرس قيم "السلام، الطهرانية، والعدالة الإنسانية" التي بنيت عليها موانئ الدولة الجزائرية الحديثة.

اللون الأحمر (النجمة والهلال): يتربع في مركز التقاطع البصري للعلامة، النجمة الخماسية وهلالها يمثلان الإحالة السيميائية المباشرة على "الهوية الحضارية الإسلامية والأبعاد الكونية"، في حين ينفرد اللون الأحمر بإحالة إيحائية بالغة الحساسية، وهي "دم الشهداء الزكي"، الأحمر هنا ليس لوناً حاراً لإثارة الانتباه، بل هو "أيقونة تضحية" تذكر المتعلم الصغير في كل صفحة بالثمن الباهظ الذي دُفع في سبيل الحرية.

2. التوظيف الوظيفي وآلية "التثبيت الرمزي (Symbolic Anchoring)"

يلاحظ سيميائياً أن العلم الوطني لا يظهر فقط في الدروس التي تتحدث عن الرموز الوطنية، بل يُوظف كـ "خلفية بصرية مستمرة (Visual Background)" أو كإطار يحيط بالتعليمات، وشارات تعلو رؤوس التمارين والنشاطات، إن هذا التكرار الآلي والمنظم يستهدف هندسة اللاوعي عند طفل السنة الرابعة ابتدائي عبر آلية تُعرف في السيميائيات البصرية بـ "التثبيت والارتباط الشرطي".

وفي هذا الصدد، يحلل الباحث والسيميائي المغربي سعيد بنكراد أبعاد هذا التدفق البصري وأثاره في الشحن العاطفي وتشكيل الهويات القومية قائلاً:

"إن تكرار ألوان السيادة الوطنية في الفضاء البصري الموجه للطفل يشغل كآلية شحن عاطفي لا وعي، يهدف بالأساس إلى مطابقة الرمز (العلم) بالذات (المواطن)؛ فالطفل لا يتعلم الرمز كعنصر خارجي، بل يتشربه كجزء من أناه العليا، حتى يغدو الدفاع عن الرمز بوعيه الباطن دفاعاً عن الوجود الذاتي نفسه، وتصبح الإساءة للرمز مساساً بكيونته الشخصية" (سعيد، 2012، صفحة 201)

3. إنتاج "المواطنة البصرية الملتزمة":

إن الاستراتيجية الدلالية الكامنة وراء هيمنة العلم الوطني وألوانه في طبعة الجيل الثاني، تروم نقل المتعلم من مرحلة "معرفة الوطن" إلى مرحلة "العيش في فضائه الرمزي"، فالكتاب المدرسي هنا يعوض قلة المفاهيم السياسية المعقدة التي يصعب على طفل في سن التاسعة استيعابها (كالسيادة، والدستور، والشرعية الدولية) بـ "مكثفات بصرية بديلة": الألوان الثلاثة والنجمة والهلال تصبح هي الترجمة المرئية والملموسة لكل تلك المفاهيم الإدارية والقانونية الجافة.

هذا المنهج البصري يتكامل بنيوياً مع الطروحات الفلسفية والتربوية للمفكر الجزائري عبد الله شريط الذي قارب مسألة الأخلاق والوطنية في المنظومة التربوية الجزائرية بالقول:

التمثيلات البصرية للهوية الوطنية في الكتاب المدرسي الجزائري "سنة رابعة ابتدائي أنموذجاً" -دراسة سيميولوجية-

"إن تربية الناشئة على قيم المواطنة لا تتحقق بنصوص الأخلاق الجافة والوعظ المباشر، بل عبر تسييج المحيط الثقافي والتربوي للطفل بالرموز والآثار الشاهدة التي تلتقطها العين تلقائياً، فالرمز السيادي حينما يمتزج بالنشاط اليومي للمتعلم، يتحول من شعار سياسي إلى سلوك وجداني عفوي، وتصبح التضحية من أجل الوطن خياراً عقلياً مبنياً على ألفة بصرية مسبقة مع مقدسات الأمة" (عبد الله ، 1984 ، صفحة 73)

بناءً على ذلك، تكشف سيميولوجية الألوان والرموز السيادية في هذا الكتاب عن نجاح المقاربة البصرية في تحويل العلم الوطني من مجرد قطعة قماش بروتوكولية إلى "مظلة دلالية" تظل كل المعارف التاريخية والمدنية التي يتلقاها التلميذ، مما يجعل الهوية تنبثق كصورة واضحة المعالم، محفورة في ذاكرة العين قبل ذاكرة العقل.

رابعاً: الفجوات والملاحظات النقدية من منظور سيميولوجي

إن المقاربة السيميولوجية العلمية لا تقف عند حدود رصد دلالات التوفيق والنجاح الإيقوني داخل المحمل التربوي، بل تقتضي بالضرورة ممارسة "تفكيك نقدي" (Critical Deconstruction) "للمنتج البصري للكشف عن المسكوت عنه، ورصد الفجوات الدلالية والتناقضات الرمزية التي قد تعيق وصول الخطاب الهوياتي أو تؤدي إلى انحراف شفراته أثناء عملية التلقي لدى متعلم السنة الرابعة ابتدائي.

من خلال هذه القراءة السيميائية الفاحصة لكتاب التاريخ والتربية المدنية (طبعة الجيل الثاني)، يمكننا

تحديد وتحليل فجوتين بنيويتين رئيسيتين:

1. النمطية الأيقونية والمهادنة البصرية (Iconic Stereotyping)

تتجلى هذه الفجوة في الاعتماد المتكرر داخل الكتاب على رسومات توضيحية (Illustrations) منفذة بطرق كلاسيكية تقليدية (رسوم خطية ثنائية الأبعاد، تفتقر إلى العمق والمحاكاة الرقمية الحديثة)، سيميائياً، تقع هذه الرسوم في فخ "النمطية الجاهزة" التي تقدم الهوية الوطنية كقالب جامد معزول عن حركة الزمن، بدلاً من تقديمها كديناميكية حية.

إن طفل القرن الحادي والعشرين يعيش في بيئة رقمية فائقة التطور (ألعاب فيديو ثلاثية الأبعاد، منصات تفاعلية، وسائط بصرية عالية الدقة)، وعندما يصطدم في كتابه المدرسي بأيقونات بدائية الصنع، يحدث لديه ما يسمى سيميائياً بـ "الإنفصام الدلالي"؛ حيث يعجز عن إيجاد رابط بصري يجمع بين واقعه التكنولوجي الحيوي والرموز التاريخية لوطنه.

وفي هذا الصدد، يحذر الخبير السوسيولوجي والتربوي علي أسعد وطفة من خطورة هذه الفجوة الإدراكية بين

لغة المدرسة ولغة العصر قائلاً:

"إذا عجزت الأيقونة المدرسية عن مجازاة الثورة البصرية الرقمية المحيطة بالطفل، وعجزت عن الارتقاء إلى مستوى ذائقتها التكنولوجية المعاصرة، فإن الخطاب الأيديولوجي والتربوي للمدرسة يفقد جاذبيته الحيوية، ويتحول في ذهن المتعلم إلى مادة جافة، مغترية، ومنتمية إلى فضاء ميت لا صلة له بواقعه المعيش؛ مما يدفع الطفل إلى البحث عن هويات بديلة في الفضاءات الرقمية الأكثر جاذبية" (علي، 2009 ، صفحة 315).

إن النمطية في رسم ملامح الشخصيات أو الأزياء الشعبية بشكل متكرر دون تجديد فني، يحول هذه الرموز في لاوعي الطفل من "مكونات هوية حية" إلى "مقتنيات متحفية قديمة" يدرسها للنجاح في الامتحان ثم ينساها.

2. اختلال التوازن الزمني: غياب البعد البصري للمستقبل (The Future Absence)

تشتغل الصورة في هذا الكتاب بذكاء شديد على محور الماضي (الجزائر التاريخية الثورية)، وعلى محور الحاضر الساكن (الجغرافيا والمعالم الأثرية)، لكنها تسقط تماماً في "العمى البصري نحو المستقبل"؛ حيث يلاحظ غياب شبه تام للأيقونات والدوال التي تحيل على "الجزائر الحديثة الطموحة".

التشريح السيميائي للاختلال الزمني: يفتقر الكتاب جزئياً أو كلياً لصور فوتوغرافية أو رسومات تبرز التطور التكنولوجي في الجزائر، أو المنشآت العمرانية والصناعية الكبرى، أو صور الكفاءات العلمية والطبية والرياضية المعاصرة التي ترفع الراية الوطنية في المحافل الدولية.

إن هذا الاختلال في التوزيع الزمني للأيقونات يبعث برسالة دلالية مضمرة (Unconscious Message) مفادها أن الهوية الجزائرية هي "هوية ذاكرة" فقط (تتغذى على الماضي)، وليست "هوية إنجاز وتطلع" (تتغذى على الحاضر والمستقبل)، هذا يشحن الطفل عاطفياً تجاه تاريخه، ولكنه يتركه عاجزاً بصرياً عن تخيل دوره المستقبلي في بناء مشروع الدولة.

ويتطابق هذا النقد السيميائي المعمق مع ما أسس له الفيلسوف والمفكر الجزائري مالك بن نبي في تنظيراته حول شروط النهضة وبناء الشخصية الوطنية، إذ يرى أن:

"إن حصر ثقافة الناشئة ووعيمهم في تمجيد التاريخ والوقوف عند مآثر الماضي دون ربط ذلك بوظيفة اجتماعية وإنتاجية مستقبلية، يولد في الأمة ما يمكن تسميته بـ "الشلل الحضاري"؛ فالأيقونة والرمز يجب أن يتحولا في عين الطفل إلى طاقة حركية تدفعه لصناعة الغد، لا إلى مجرد وسادة مريحة يستنيم إليها للافتخار بما صنعه الأجداد، إن الهوية الحقيقية هي التي توازن بين الوفاء للذاكرة والطموح للمستقبل" (مالك، 1986، صفحة 92)

بناءً على هذا التحليل، يتضح أن "السياسة البصرية" لكتاب السنة الرابعة ابتدائي، رغم توفيقها الكبير في شحن وجدان الطفل بقيم الانتماء، إلا أنها بحاجة إلى مراجعة سيميائية وفنية جذرية لتخليص الأيقونة المدرسية من نمطيتها الكلاسيكية، وضخ دماء المستقبل في عروقها، ليتعلم الطفل أن الهوية ليست شهادة وفاة نعتز بها، بل هي ورشة بناء نساهم في إعلائها.

خاتمة:

تأسيساً على ما تقدم من تفكيك سيميائي وقراءة نقدية للمنظور البصري في كتاب التاريخ والتربية المدنية للسنة الرابعة من التعليم الابتدائي (طبعة الجيل الثاني 2016)، يمكن صياغة الحصيلة المعرفية والدلالية لهذه الدراسة في مجموعة من الاستنتاجات المحورية الآتية:

التمثيلات البصرية للهوية الوطنية في الكتاب المدرسي الجزائري "سنة رابعة ابتدائي أنموذجاً" -دراسة سيميولوجية-

1. الصورة كرسالة أيديولوجية هادفة: أثبتت الدراسة أن "التمثيلات البصرية" المتضمنة في الكتاب المدرسي لا يشتغل كمجرد أدوات إيضاحية عابرة أو زينة جمالية، بل هي "هندسة بصرية مقصودة" وخطاب مواز يمتلك استراتيجية دلالية تشتغل على الوعي الباطن للمتعلم، لتوجيه إدراكاته نحو تبني قيم ثقافية وسياسية محددة.
 2. بناء نسق هوياتي متكامل: نجح الكتاب، إلى حد بعيد، في صياغة ملامح "الهوية الوطنية" من خلال توليفة أيقونية متوازنة، زاوجت بين البعد الجغرافي (تسييس المجال وإضفاء السيادة على الأرض)، والبعد التاريخي (أنسنة الذاكرة الوطنية عبر صورة البطل والشهيد)، والبعد الثقافي (تكريس شرعية التنوع المحلي وصهر روافده الأمازيغية والعربية والإسلامية في بوتقة واحدة).
 3. الهيمنة الرمزية لرموز السيادة: يمثل الحضور الطاغي للعلم الوطني وألوانه الثلاثة آلية "تثبيت رمزي" بالغة الأثر؛ إذ تعمل كمكثف بصري بديل للمفاهيم القانونية والسياسية المعقدة، محولةً الشعار السياسي إلى "ألفة وجدانية عفيفة" تلازم الطفل في أنشطته اليومية.
 4. شرح التلقي بين النمطية والواقع الرقمي: كشفت الدراسة النقاب عن فجوة جمالية تتمثل في "النمطية الأيقونية" لبعض الرسوم الكلاسيكية، والتي لم ترتق إلى مستوى الذائقة البصرية التكنولوجية لطفل العصر الرقمي، مما قد يهدد بحدوث فتور أو انفصام دلالي بين فضاء المدرسة وفضاء الواقع المعيش.
 5. التوقع في الذاكرة وغياب المستقبل: أظهر التحليل السيميائي اختلالاً في التوزيع الزمني للأيقونات؛ حيث طغت صور "الجزائر التاريخية الثورية" (الماضي) مقابل غياب شبه تام للدوال البصرية التي تحيل على "الجزائر الحديثة" ومشاريعها الطموحة، مما يكرس في لاوعي التلميذ مفهوم "هوية الذاكرة" على حساب "هوية الإنجاز".
- بناءً على النتائج والملاحظات النقدية التي أسفرت عنها القراءة السيميولوجية، نتقدم بمجموعة من التوصيات العملية الموجهة للجنة الوطنية للمناهج وخبراء التأليف التربوي بوزارة التربية الوطنية:**
1. عصنة المخرج الفني والأيقوني: ضرورة تخليص الكتاب المدرسي من الرسوم الخطية الكلاسيكية النمطية، والاستعانة برسامين ومصممي غرافيك محترفين لإنتاج أيقونات رقمية تفاعلية وثنائية أو ثلاثية الأبعاد تحاكي البيئة البصرية الحديثة للطفل وتزيد من جاذبية الخطاب الهوياتي.
 2. أنسنة وتحديث صور المستقبل: نقترح إعادة التوازن الزمني للمنظور البصري عبر إدراج أيقونات وصور فوتوغرافية تبرز الجزائر المعاصرة والمستقبلية؛ مثل صور المفاعلات العلمية، الجامعات، المنشآت الاقتصادية الكبرى (كجامع الجزائر الأعظم، الطريق العابر للصحراء)، وصور الكفاءات والعلماء الجزائريين المعاصرين، ليربط الطفل هويته بالبناء والإنتاج الفعلي.
 3. تطوير "دليل سيميائي" لمصممي المناهج: إيجاد آلية تنسيق علمية بين خبراء البيداغوجيا والمختصين في السيميائيات وعلم النفس البصري أثناء صياغة المناهج، لضمان دراسة الآثار النفسية والإيحائية للألوان والزوايا والرموز قبل اعتمادها رسمياً.
 4. توسيع كود التنوع الثقافي: تعزيز الحضور البصري للموروث اللامادي الجزائري بشكل أوسع، ليشمل تمثيلات بصرية للصناعات التقليدية، المخطوطات العتيقة، والفنون الشعبية لكل منطقة، ترسيخاً للعمق الحضاري والوحدة الوطنية المتصالحة مع ذاتها.
 5. تفعيل التربية البصرية (Visual Literacy): إدراج أنشطة بيداغوجية داخل كتاب التربية المدنية تدرب التلميذ على "قراءة الصورة" وتفكيك خلفياتها، لحمايته من الهيمنة الرمزية والتدفق البصري العشوائي الذي يتعرض له عبر وسائل التواصل الاجتماعي والإنترنت.

قائمة المراجع:

- أسعد علي. (2009). وطفة: علم الاجتماع التربوي المعاصر. (2) بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- إيكو، امبرتو. (2007). العلامة: تحليل للمفهوم وتاريخه (1).، بيروت، لبنان،: المركز الثقافي العربي.
- بارث، رولان. (2005). بلاغة الصورة (1). الدار البيضاء، المغرب،: أفريقيا الشرق.
- سعيد، بنكراد. (2012). السيميائيات البصرية: خطابات وإنتاجات (1). الرباط، المغرب: دار الأمان.
- شريط عبد الله . (1984). من الأخلاق والتربية الوطنية (دراسات ومقاربات في المناهج الجزائرية). (2) الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- عز الدين ، بوكلو (2014). المواطنة والمجال الجغرافي في المنظومة التربوية الجزائرية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- فيصل، الأحمر. (2010). معجم السيميائيات (1). بيروت، لبنان،: الدار العربية للعلوم ناشرون.
- مالك، بن نبي. (1986). شروط النهضة. دمشق، سوريا: دار الفكر المعاصر.
- مصطفى، حداد. (2002). التربية والثقافة في الجزائر: دراسات سوسيولوجية. الجزائر: دار القصبة للنشر.
- نايت بلقاسم مولود قاسم. (2007). شخصية الجزائر الدولية وتاريخها المجيد قبل 1830. (2) الجزائر: دار الأمة للنشر.